نصوص في عمارة المدينة ٣-٣

المدن التاريخية في العالم الإسلامي

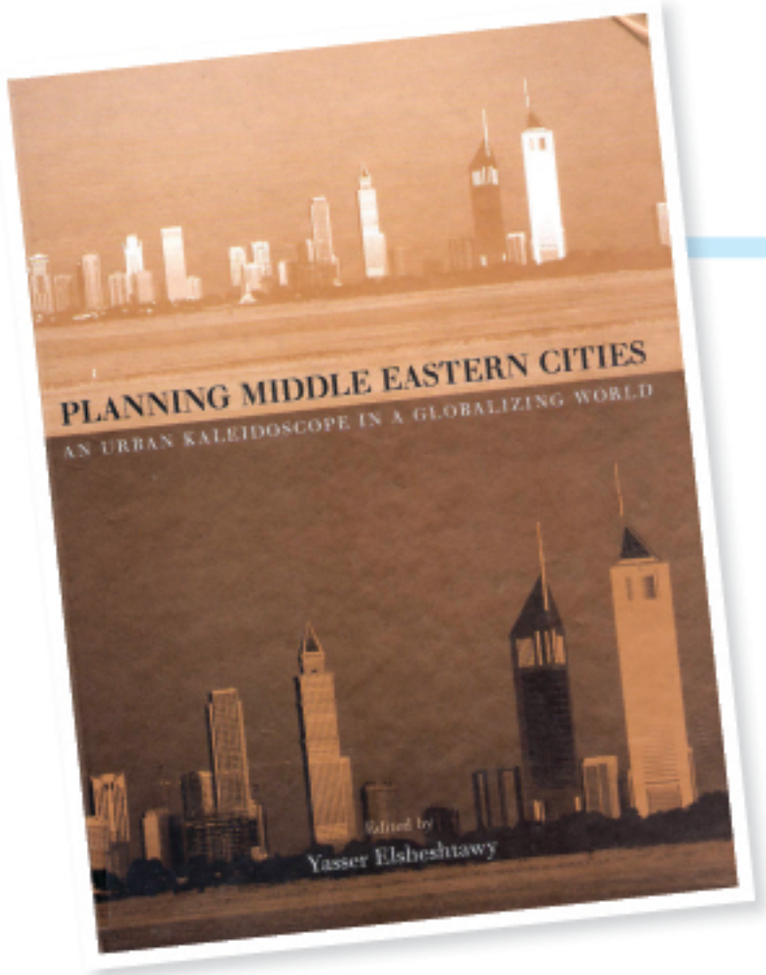

ونظرا لأهمية مدينة القدس يفرد لها الكتاب أكثر من ٣٠ صفحة معظمها في سرد التاريخ الذي تعاقب على المدينة. ويقسم الكتاب تاريخ المدينة لثلاثة حقب رئيسة: الأولى وتضم ستمائة عام حيث تقاسم المدينة المسلمون والمسيحيون وبين أمراء من العهد الإسلامي. وفي هذا الحقبة وبعد تسليم المدينة دون دماء لعمر بن الخطاب وتعاقب الفترات الإسلامية جاء إنشاء قبة الصخرة كعلامة بارزة لذلك التاريخ لهذه الفترة. وانتهت الفترة بالحروب الصليبية التي دمرت الكثير من المباني في المدينة باستثناء بعض معالمها البارزة. أما الستمائة عام التالية في تاريخ المدينة فكانت نسبيا هادئة من الأحداث المهمة، حيث عاشت المدينة حياة لا تتناسب مع أهميتها التاريخية سابقا ولاحقا – رغم أنها شهدت في الوقت ذاته تطورات في الحياة العمرانية في الفترات المملوكية والفترة العثمانية الأولى بحسب تقسيم الكتاب. أما الفترة الثالثة من تاريخ المدينة المقدسة فيبدأ من العام ١٨٣١ بفتحها على يد ابراهيم باشا، والتي تؤذن بالفترة العثمانية الثانية منذ العام ١٨٤٠، والتي يعتبرها الفترة الحديثة من تاريخ المدينة بين الأعوام (١٨٣١-١٩١٧)، قبل أن يتطرق لفترة ما بعد عام ١٩١٧ والتي هي فترة الانتداب البريطاني على فلسطين والقدس. ويعرض الكتاب بتفصيل أكثر ملامح المراحل الثلاث بتأريخ دقيق ومراجع متعددة.

د. وليد أحمد السيد

في قسم لاحق من تاريخ مدينة القدس يعرض الكتاب أهم المباني والصروح المعمارية ويقسمها حسب الفترات التي حكمت المدينة سياسيا، من بداية العهد الإسلامي وحتى منتصف القرن العاشر، ومن الأعوام ٣٣٨ – ٩٥٠ والحروب الصليبية والفترتين الأيوبية والمملوكية ثم العثمانية. ومجددا يختم الكتاب المراجع الخاصة بالمدينة بقسمها إلى مراجع خاصة بالتاريخ وأخرى خاصة بالمباني المعمارية.

الكتاب بتقسيماته وعرضه التاريخي يمثل مرجعا مهما لاستخراج مادة علمية وتاريخية ومعمارية للمهتمين من باحثين وأكاديميين ومختصين بعلوم أخرى سياسية وتاريخية، لكنه بتوفيره للمراجع الأساسية التي يمكن البحث فيها حول تاريخ وعمارة كل مدينة يمكّن الباحثين من الاستزادة والاستطراد – وبهذا يفتح الباب واسعا أمام مزيد من الدراسات والأبحاث العلمية ولكنه يوفر المادة المهمة بين دفتي عمل واحد ومن هنا تكمن أهمية الكتاب. ويكاد لا يخلو من مدينة في التاريخ الإسلامي، لكن المحرر يعترف في مقدمته أن صدور الكتاب قد تزامن مع إصدار آخر هو (Cities of the Middle East and North Africa, a Historical Encyclopedia) يحوي مزيدا من المدن واعتبره مكملا للكتاب الذي بين أيدينا وليس منافسا له.

تخطيط مدن الشرق الأوسط

هذا الكتاب يعكس محاولة لقراءة المدينة العربية ومشكلاتها من الداخل بواسطة مجموعة من الباحثين العرب. فقد حفلت المكتبة العربية بالمؤلفات الغربية التي أسس لها وألفها إما مستشرقون أو باحثون غربيون بنظرتهم للمدينة في العالم الإسلامي من خارج منظومة الثقافة والفكر المحلي أو الإقليمي. وأبرز الأمثلة الكتاب الذي عرضناه سابقا، لكن هذا المؤلف الذي أسهم فيه مجموعة باحثين بعمق وسخاء – باستثناء بحث واحد مقتضب للغاية – يتناول المدينة العربية في عصر العولمة والبحث عن الهوية – وتم اختيارهم عموما لعلاقتهم بالمدينة التي كتبوا فيها بشكل أو بآخر، فضلا عن كونهم من داخل الوسط المعماري.

وتظل مشكلة تعميم الإطار النظري على المدينة العربية عصية على الكثير من الأبحاث والباحثين، فلكل مدينة خصوصيتها وحالتها الفريدة رغم انتمائها لثقافة وحضارة عربية واحدة. فمن الخطل النظر للمدن العربية كحزمة واحدة وتحليلها وإسقاط منظور عام عليها جميعا. ومن هنا فالكتاب يجتهد في طرح تصورات وحلول لمجموعة منتقاة من المدن العربية شرق الأوسطية ضمن أطر الهوية والعولمة ومتعلقات ما بعد الاستعمار والتحرر ومناقشة مشكلاتها.

ومن أبرز المدن التي تلفز للذهن في محيط العالم العربي والشرق أوسطية مدن غنية بتراثها العمراني مثل القاهرة وتونس وبغداد مثلا، ومدن لم تنل نصيبا وافرا من الدراسة والبحث مثل الجزائر وصنعاء، بالإضافة لمدن حديثة النمو وتشكل ظاهرة حضرية وعمرانية تستحق الوقوف عندها وتحليلها ودراستها بعمق وتفصيل مثل مدينة دبي المثيرة للجدل. والكتاب يقف عند هذه المدن ويبرر المحرر أسباب اختيار هذه المدن تحديدا ودراستها في هذا الكتاب.

ويحمد المحرر وغالبية الباحثين في ابتعادهم عن إطار «إسلاموية» المدينة العربية والتي سادت في حقبتي الثمانينيات وبداية السبعينيات والتي أصبحت منتهية الصلاحية ولها انعكاسات سلبية وجامدة على قراءة المدينة العربية – وهو ما رددناه مرارا وتكرارا في مداخلات وأطروحات نقدية للكثير من الدراسات اللاتاريخية في قراءة المدن العربية بمنظور تاريخي ماضوي «نصي». وبدلا من ذلك يبتعد الإطار العام للكتاب عن هذا التصور الدوغمائي وينحو لدراسة المدينة العربية بمنظور زمني ما بعد القرن التاسع عشر وبإسقاطات العصر وأطروحات متجددة تعالج قضايا الاستعمار والتحرر وما يتقاطع معها من مسائل الهوية ومعطيات القرن الحالي. ومن هنا ففصول الكتاب المتعددة تنطوي تحت هذا الإطار – ما خلا الفصل الثاني «مقومات مواقع المدن» والذي يتحدد بإطار نظري ينتمي للإطار المحدود والمحصور بنظرة غلبة النص على العقل والواقع والتشبث بأقوال السلف من الجيل العاشر لتفسير مشاكل البيئة المعاصرة والتغني بنموذج نظري ماضوي مثير للجدل بأبسط توصيفاته كنموذج متغير عبر العصور. ما عدا ذلك فالكتاب يتحرر في منهجه وإطاره من جمود النص لقراءة علمية واعية للمدينة ويقدم طرحا أصيلا ومنهجيا للمدن العربية التي تناولها بالطرح والتحليل – والأهم «المقارنة» أو التحليل المقارن.

فالفصل الثالث يتناول مدينة الجزائر ويتطرق بالتحليل تطورها الفراغي والتحولات الحضرية بها في فترة الاستعمار وما بعدها وذلك بدراسة القصبة أو مدينة ما قبل الاستعمار لتتبع تطورها وأوجه التعقيد والتغيرات التي طرأت على ملامحها وتركيبتها الفراغية، والمدى الذي أثرت به العولمة في نموها الحضري وأنساقها المعمارية. وبدهيا فهذه المنهجية في المقارنة ناجعة جدا في الوقوف على نتائج ودروس مستفادة قيمة في ظل وجود منهجية واضحة وأطر للدراسة – بخلاف معظم الدراسات التي تركز على جانب أحادي ينحصر في جزئيات لا تعطي نتائج بدلالات شمولية وصورة كلية للمدينة الواحدة أو بمقارنات مع المدن الأخرى – وهذه أبرز خصائص منهجية (Space Syntax) لتحليل الأنساق الحضرية التي تعتمد المقارنة كأسلوب للتحليل باعتماد الخلفيات للعوامل المؤثرة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي يمكن تفسير النتائج الحسية على ضوئها وبالعكس، وهي منهجية ما تزال غائبة عن الدراسات الحضرية في العالم العربي، وبالرغم من أن الكتاب ينحو نحو الابتعاد عن الأطر الكلاسيكية اللاتاريخية في قراءة المدينة إلا أنه ما زال في منتصف الطريق نحو توظيف منهجيات عملية ونظرية أثبتت جدواها في الأوساط الأكاديمية والعملية الغربية كنظرية (Space Syntax)، وهي نظرية طورها مشرف كاتب هذه السطور (Bill Hillier) وكانت منهجية البحث العلمي لعشرات أبحاث الدكتوراة في تحليل الأنساق الفراغية الحضرية.

نتائج الدراسة في الفصل الثالث تشير لفروقات بين الفترتين يؤطرها أبعاد اجتماعية وهجرات وتحوصلات مجتمعية عبر عنها تغيرات في النسيج الحضري للمدينة بتحولها من الجوهر الوحيد لوحدات حضرية ممتدة كما تشير نتيجة البحث. لكن هذه الدراسة برأينا لا تخرج عن إطار الدراسات التقليدية، رغم كونها دراسة مقارنة، وتشكل بداية البحث فقط، إذ يمكن دراسة النسيج الحضرية دراسة مستقيضة وتحليل مقارن بين المدينتين وتفسير التحورات والتحولات بين النسيجين العضويين ضمن إطار فترتي البحث على ضوء الواقع التاريخي. وهذا يتم بتتبع أوجه الشبه والتطور والاختلاف وتفسيرها تفسيرا منهجيا – وهذا لم يكن متاحا قبل نظرية (Space Syntax) التي أشرنا إليها والتي كان يمكن أن تضفي عمقا وبعدا مهما للبحث برأينا.

وهذا ينسحب على الفصل الرابع الذي يتتبع تطور مدينة بغداد تاريخيا وحتى تأثيرات العولمة، وبالرغم من التحليل التطوري لنمو المدينة اعتمادا على المصادر والمراجع الأدبية، وتدعيم النص بمخططات لتطور المدينة إلا أن التحليل الحضري

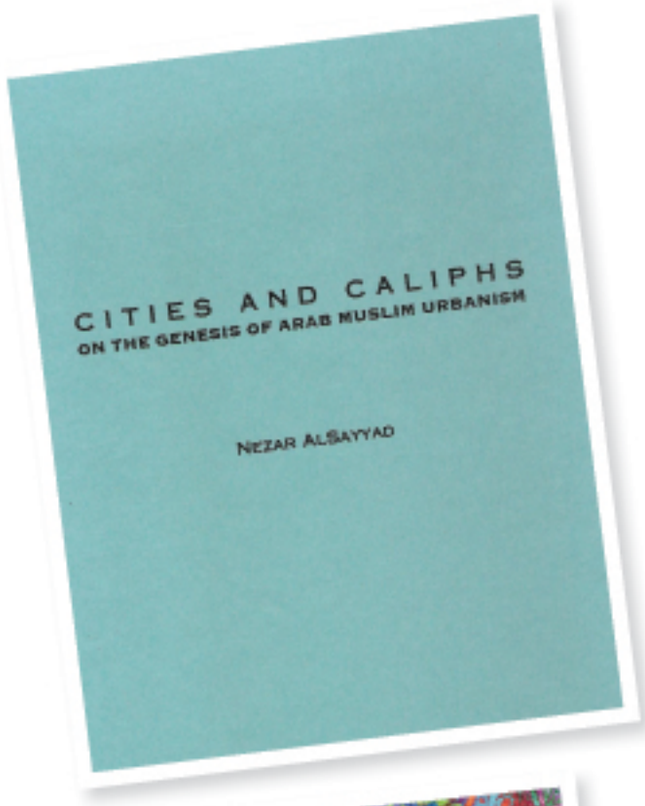

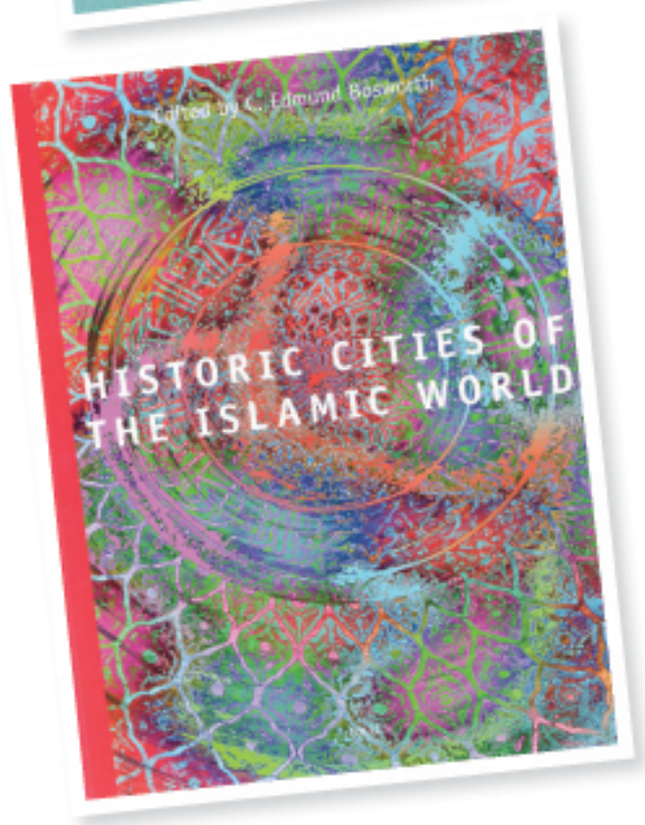

المعماري يغيب عن البحث، كما تغيب مزاوجة النص والتحليل الحضري للتطور العمراني، بما يحيل البحث لمصاف التتبع التاريخي أكثر منه تحليلا ضمن الإطار المعماري العلمي – الذي يمكن أن يكون دراسة تالية تنبثق من هذا البحث القيم. وفي نهاية البحث يتتبع الباحث أهم المعماريين الذين أسهموا في بناء بغداد المعاصرة مثل رفعت الجادرجي ومحمد مكية في إطار تتبع البحث للتحورات في النمط العمراني في المدينة والتي أسهم بها معماريون غربيون لا يغفل الباحث ذكرهم.

من فصول الكتاب الأخرى المهمة التي يجدر الوقوف عندها الفصل الخامس حول مدينة صنعاء وتحولات المدينة المهمة وتداعيات الفترة المعاصرة على بنيوية النسيج الحضري للمدينة. ويقدم خالد السلال في هذا البحث رؤية للكيفية التي يجب عليها إدراك عملية التحول التي شهدتها المدينة، وذلك ليس فقط من خلال الكشف عن خصائص العمارة البيئية ولكن من خلال إدراك الكيفية التي حافظت بها العمارة البيئية على توازن مهم بين علاقات متشابكة ومعقدة بين العوامل البيئية والاجتماعية وفي نفس الوقت تتبع سببية إخفاق العمارة المعاصرة في تحقيق نفس الهدف الذي حققته الأولى. ويتتبع تاريخي للعمارة في اليمن عموما ثم العمارة البيئية في صنعاء يقود السلال القارئ لسلسلة من التحولات التي شهدتها صنعاء بعد الثورة ثم النمو الديموغرافي الكبير للمدينة عبر أكثر من ثلاثين عاما منذ منتصف الثمانينيات لليوم. وفي نفس الوقت يتتبع الحداثة في المدينة التي واكبت النمو فيها والتي أثرت على البنية التحتية فيها.

ثم يعقد السلال مقارنات مهمة للتحورات المعمارية والنمط العمراني للمدينة والتجمعات السكنية والمباني السكنية قبل أن يخلص لنتائج دراسته القيمة بضرورة الحاجة لمنهجية جديدة حيث تعيش مدينة صنعاء عالمين متناقضين متجاورين بحسب دراسته.

مدن وخلفاء

هذا الكتاب القيم الصادر قبل حوالي عشرين عاما في مطلع التسعينيات يستحق تماما الوقوف عنده مرة أخرى لمجموعة من النقاط التي يثيرها والتي أسست لمنهجية مهمة في قراءة المدينة العربية كان يمكن البناء عليها من قبل دراسات لاحقة، بالإضافة إلى أن أسس المنهج الذي قام عليه الكتاب في تحليل وقراءة المدينة شكلت نواة لم تكتمل للأسف في تحليل وقراءة الفضاء الحضري للمدينة وتركيبتها الفراغية بالتكامل مع منظومتي الوظيفة والمنظومة الاجتماعية، وهي منهجية غربية تأسست منذ أكثر من ٤٥ عاما الآن وتم تطبيقها على عشرات المدن العالمية والعربية باستخدام منظومة (Space Syntax) والتي ولوهلة يخال القارئ لهذا الكتاب أن كان سينعطف على منهج شبيه أو كان.

فقراءة الكتاب المنهجية التفكيكية التحليلية للمدن من خلال عدة طبقات فراغية واستعمالات الأراضي وإعادة تركيب الفضاء الحضري مع الوظيفة تتلاقى في أرضيتها مع النظرية المذكورة لكنها لا تصل لنفس غايتها وقوة نتائجها، بالرغم من أن الكتاب قوي جدا بأطروحاته النظرية بما جعله بحق مرجعا أكاديميا مهما لقراءة المدينة العربية، وكان يمكن أن يكون مرجعا في تشكيل نظرية قوية في قراءة المدينة وتفكيكها فراغيا بشكل علمي كما تقدمه النظرية المذكورة.

يستهل الصياد كتابه بأن دراسة التحضر الإسلامي تأسست على فرضية مفادها أن مدن المسلمين (Muslim cities) هي ماهيات محتواة ضمنيا والتي تشكل مجتمعات وحضارة تختلف جذريا عن بقية الحضارات. وفكرة مدينة المسلمين (Muslim cities) التي قدمها الباحثون المستشرقون في القرن التاسع عشر، استمرت بأن تكون لها مركزية في الدراسات الحضرية. والكتاب كما يقدمه الصياد ليس عرضا للتخطيط الإسلامي – كما قدمت له دراسات سابقة كلاسيكية يعرض لها الصياد بمراجعته للأدبيات السائدة في تلك الفترة – ولكنه دراسة في كيفية بناء المدينة العربية والأدوار التي لعبها خلفاء عدة في تشكيل تركيبتها الحضرية، وكما ساد في الدراسات التي بحثت في المدينة العربية وتشكيلها يعرّج الصياد على الأدبيات التاريخية لليعقوبي والطبري وابن عساكر والمقريزي بشيء من التحري الأكاديمي والمساءلة والتدقيق. وبعدها يضع أسس ومنهجية التحري والبحث في الكتاب ليطرح مجموعة من التساؤلات الابتدائية في مفهوم الحضرية في المدينة العربية المسلمة ، ومساءلة وتدقيق الكثير من المسلمات التي قدمها المستشرقون في تصوراتهم «النمطية» للمدن العربية. ويعرض بشيء من التفصيل والتوضيح التجريدي افتراضات المستشرقين وتباين «نماذجهم» الافتراضية لشكل المدينة العربية.

كما يطرح الصياد بعمق مسألة التحولات الحضرية في المدينة العربية تاريخيا من خلال نماذج في دمشق وحلب وماهية التحولات على مستويات الوظيفة أو الشكل التركيبي الفراغي. ويناقش التحولات الوظيفية والفراغية للمدن القائمة.

ما يتميز به هذا المؤلف الرجعي المهم عن غيره من الدراسات السابقة واللاحقة التي بحثت في موضوع المدينة العربية، قدرته المتميزة في الجمع بين قوة النظرية المنهجية والبحث المستفيض والمكثف في الأسس النظرية والتاريخية وما سبقه من أدبيات سواء من قبل المستشرقين أو من الباحثين المعاصرين للكاتب، وبخاصة أن الكتاب جاء في فترة حرجة من التأثر بفكر مؤدلج ينحو نحو تقديس النص بما انعكس سلبا على معظم الأطروحات السائدة في الفترة التي صدر بها الكتاب، والكتاب بهذا تحرر من جمود النظريات المحيطة، بل نقدها نقدا منهجيا وفي قراءة للواقع السياسي والفكري الذي انطلق منه بعض الباحثين الذين تخرجوا من معاهد غربية وصاغت أفكارهم ملامح دراسة المدن العربية في تلك الحقبة، وفوق ذلك كله فالتجانس والانسجام في تحليل المدن المختلفة على امتداد الكتاب يعكس قدرة المؤلف وتمكنه النظري من المادة النصية والمعلومات الهائلة وليس العكس وهو من أبرز المزالق التي يقع فيها معظم الباحثين وتؤطر غالبية الأبحاث في موضوع المدينة العربية.